-7-

حين تكون القوة حق
التفجعات القديمة، الخدمات الشتراوسية، الإعفاءات الأمريكية

ثوم وركمان

مقدمة

تركز على الباحثين والمفكرين من أتباع ليو شتراوس انتباه شعبي متنام في السنوات الأخيرة. ومقالة ايرل شوريس المعنونة «كذابون لئام» التي نشرت في «مجلة هاربر» في صيف عام 2004 تشهد على هذا الانسحار المتزايد بكتابات شتراوس والأوساط الأكاديمية التي استمدت إلهامها من فكره. أكد شوريس أن «الشتراوسية» هي «الأسوأ في السياسة الأمريكية»، وفي مسعى منه للعثور على مغزى في الدعاوى الزائفة حول أسلحة الدمار الشامل في العراق، ركز على الالتزام المثقف بالكذب والغش والخداع الذي يكمن كما افترض في صميم هذا التراث الفكري[1]. وبالفعل، طفا الشتراوسيون، إذا جاز لنا استخدام هذا الاسم، على السطح في الأخبار ـ بول ولفوويتز، ريتشارد بيرل، ليون كاس، فرانسيس فوكوياما، الان كيز، ايرفنغ كريستول، على سبيل المثال لا الحصر ـ وهؤلاء المفكرون تميزوا بالصراحة التامة فيما يتعلق بميراثهم الفكري[2]. كما اعتبروا أيضا مهندسي وراسمي أجندة السياسة الداخلية والخارجية لإدارة بوش، بما في ذلك مبدأ الفعل الاستباقي المثير للجدل. لكن من وجهة نظر معينة، لربما يعاب على المهتمين بالتأثير الشتراوسي في السياسة الخارجية للولايات المتحدة عدم

obeikandi.com

فهمهم للتاريخ بصورة كافية. فما تعلمناه طيلة القرن العشرين هو أن سلوك الولايات المتحدة لم يكن متوقفا على الميول السياسية لإدارتها الحاكمة. الرؤساء الجمهوريون والديمقراطيون يأتون ويذهبون، ولا يبدو أن لذلك علاقة وثيقة بمسلك أمريكا، كما قد يذكرنا أي مواطن في نيكاراغوا، التي تدخلت الولايات المتحدة في شؤونها أو أرسلت جنودها لغزوها أكثر من عشر مرات في القرن الماضي. في النصف الثاني من القرن العشرين، كانت الإدارات الديمقراطية على القدر نفسه من تلهف الإدارات الجمهورية على شن الحروب ـ والشاهد حرب فيتنام قبل عام 1968. وحتى ولاية كارتر تزامنت مع تدخل سياسي وعسكري واسع النطاق من قبل الولايات المتحدة في العديد من مناطق العالم الساخنة، خصوصا إفريقيا الجنوبية ومنطقة جنوب شرق آسيا. وفي حين أن المبادئ المعقلنة تظهر وتختفي ـ «مبدأ الاحتواء» في ذروة الحرب الباردة، أو مبدأ ريغان حول «التراجع» في الثمانينيات، أو «مبدأ الضربة الاستباقية» الذي تبناه بوش في أعقاب الحادي عشر من سبتمبر ـ فإن تدخلات الإمبراطورية لم تتفاوت كثيرا في شتى أنحاء العالم. ومع ذلك، شهدنا مؤخرا عملية إحياء للرأي القائل إن الإدارات تؤثر في السياسة، حيث اصطف «اليسار» الأمريكي خلف المرشحين الديمقراطيين في صيف عام 2004 من أجل عكس وتحسين المصائر الأمريكية في العراق.

هنالك سبب وجيه يدعونا للحذر من احتشاد القوى الديمقراطية في الانتخابات الرئاسية لعام 2004، والاهتمام الشعبي بالحضور «الشتراوسي» في أعلى مناصب إدارة بوش، نظرا لتأطر الأمرين كليهما (الاحتشاد والاهتمام) بنظرة حميدة وطوعية للممارسات الإمبريالية الأمريكية. إن تنمية موقف راسخ ونقدي فيما يتعلق بسياسة الإمبراطورية الأمريكية يجب أن يستهدف أكثر من مجرد الإمبريالية الراقية ـ ذلك النمط الرقيق واللطيف من الإمبراطورية المؤسس بصورة مبهمة على فكرة الحروب «العادلة» و«الظالمة»، أو الأعداء

«الحقيقيين» و«المزيفين»، أو فلاسفة المداهنة الذين يتصفون بـ«الابتذال» أو «الرقي». وانطلاقا من ذلك كله، يجري التوكيد هنا على أن الفكر «الشتراوسي» يستحق التمحيص النقدي لأنه يسهم في المعنى الإيديولوجي الضمني للإمبراطورية، ويساعد في تأسيس الرؤى المشتركة للمحاورين الذين يعتنقون علنا سياسات مختلفة، ويعين في تشكيل إجماع يبعث على الثقة ويزيل الشك ويكمن في صميم معظم الحياة الفكرية الغربية[3]. وعند البدء بتفكيك المزاعم «الشتراوسية» حول الحرب والإمبراطورية، من المفيد ملاحظة النتيجة الأساسية التي توصل إليها كينيث والتز في كتابه التحريضي المثير «نظرية العلاقات الدولية»، ألا وهي زعمه بأن النظام الثنائي القطبية يعتبر أكثر النظم استقرارا وثباتا في التحالفات الدولية[4].

لقد شكل الكتاب جزءا مهما من عملية إحياء الواقعية في فكر العلاقات الدولية في ثمانينيات القرن العشرين، كما ساعد نقد الكتاب أيضا في نشر ما دعي بـ«الجدل الثالث»، الذي وسع نطاق الأسس الفكرية في هذا المجال[5]. من الممكن تجاهل النتيجة التي توصل إليها والتز فيما يتعلق بالقطبية الثنائية، باستثناء حقيقة أن نقد روبرت كوكس له، الذي أتى بأسلوب يذكر بتوكيد ماركس في «الإيديولوجية الألمانية» على أن الحاجات الاجتماعية للطبقة الحاكمة سوف تشجع على هيمنة الأفكار التي جرت المصادقة على صحتها باعتبارها «قوانين أبدية»[6]، جلب الانتباه إلى الطبيعة الإيديولوجية للنتائج التي استخلصها. يكتب كوكس قائلا: «هنالك سمة من التفاؤل الساذج الذي لا تخطئه العين في نظرية نشرت في أواخر السبعينيات واستنتجت أن نظام القطبية الثنائية يمثل أفضل العوالم الممكنة. لقد تركت اللحظة التاريخية علامة لا تمحى على هذا العلم الشمولي كما زعم»[7]. اجتذبت هذه الملاحظة الوجيزة انتباه الوسط الأكاديمي المشتت حول الحرب إلى العلاقة العميقة والوثيقة بين الحياة الفكرية وارتقاء العلاقات الاجتماعية للسلطة/ القوة داخل وعبر المجتمعات.

هنالك حساسية مشابهة تتصل بالرابطة بين مزاعم المعرفة والعلاقات الاجتماعية للسلطة/ القوة يستهدي بها هذا التقييم للأفكار «الشتراوسية» حول الإمبراطورية. فالكتاب المتأثرون بالتراث «الشتراوسي» يشتركون بالآفاق الظواهراتية نفسها باعتبارهم حداثيين متأخرين، آفاق تشمل الإمبريالية المتمركزة في الشمال، خصوصا في واشنطن ولندن، وحروب محبطة تلقي بظلالها الثقيلة على غالبية بلدان العالم الأخرى. لكن الفكر الشتراوسي في جوهره يستحثنا على تلطيف حكمنا على هذا العالم ذاته ـ وفي الحقيقة، قبوله بمعاييه وإخفاقاته كلها. وتنصحنا الكتابات الشتراوسية بالقول إن نهوض الإمبراطوريات هو وظيفة طبيعية لضعفنا البشري وميلنا العاطفي للقوة/ السلطة. فالإمبراطورية هي نتيجة طبيعية للبشر بصفتهم بشرا؛ أما إدانة الحرب أو الإمبراطورية بشكل يفتقد الحصافة والحكمة فتعني إدانة جزء طبيعي من ذواتنا. إذن، في عصر الإمبراطورية هذا، نهض المفكرون «الشتراوسيون» لتزويدنا بـ«القوانين الأبدية» الاعتذارية للحياة العالمية، لكن موقعهم عند قدمي «الإمبراطور» أقل أهمية من حقيقة أنهم يحتشدون في ممرات ومباني المعاهد والمؤسسات الأكاديمية. ومثلما سنرى، لا يبلغ تقديمهم لمعنى ضمني إيديولوجي للإمبراطورية الأمريكية أكثر من إعادة صياغة النظرية الواقعية للسياسة الدولية، أي وجهة النظر التي هيمنت على ميدان العلاقات الدولية طيلة عقود من السنين، كما يعترف الآن الكتاب الذين يضمهم التراث «الشتراوسي».

لكن الإسهام الفكري الشتراوسي الأكثر تورطا في الدفاع عن الحرب والإمبراطورية، هو إعادة صياغة أعمال القدماء في قالب متصلب لتصبح اعتذارات دفاعية عن سيرورة التاريخ الحديث. فقد حشر ثوسيديديس على وجه الخصوص في قالب يظهر فيه وكأنه مفكر نموذجي ضمن الرؤية الشتراوسية للحياة الدولية. والمفكرون الشتراوسيون يقدمون الحجة على أن المؤرخ العظيم أدرك الحدود المقيدة للبشر حين سبر واقع حياة الهيلينيين في الحرب، تماما كما أقروا في القرن العشرين بالطبيعة الحقيقية للبشر وهم يرون اضطراب التاريخ

المعاصر. وسوف نقدم الحجة هنا على تعذر استخدام ثوسيديديس لتوفير الفكر التأسيسي الذي يطبعن الحرب والإمبراطورية. لا يمكن الدفاع عن القراءة الشتراوسية لثوسيديديس، وهي تستحث على التأمل في الضرورات الفكرية للإمبراطوريات الحديثة. لقد اهتم القدماء بالتأكيد بالحرب والإمبراطورية، وظهرت لديهم بين الحين والآخر نزعة شكوكية حول طبيعة الحياة الدولية. ومثلما أعلن رحالة كريت في افتتاحية الكتاب الأول من «قوانين» أفلاطون: «السلام مجرد اسم. أما الحقيقة فهي أن المدن ـ الدول منخرطة وفقا للقانون الطبيعي في حرب دائمة غير معلنة مع بعضها بعضا». لكن المفكرين اليونان، خصوصا ثوسيديديس، لم يصادقوا على هذه النزعة الشكوكية. وفي الحقيقة، تابع الكتاب الافتتاحي لـ«قوانين» أفلاطون الوارد ذكره آنفا، ليهاجم ويفكك هذا الرأي الشكوكي. ولم تعتبر وجهة النظر التي تبناها المفكرون القدماء الحرب والإمبراطورية من الملامح الضرورية أو الجوانب الحتمية للحياة الدولية. أما حقيقة أن الشتراوسيين يجدون قوة دافعة لآرائهم لدى ثوسيديديس على وجه الخصوص والمفكرين الكلاسيكيين عموما فهي في غير محلها، سيما وأن آراء القدماء النقدية، التي صيغت بالرغم من كلية وجود الحرب والإمبراطورية، يمكن أن تشكل مصدر إلهام لنا في عصرنا المضطرب.

التطبيع الشتراوسي للإمبراطورية

كان ليو شتراوس مؤرخا للفكر السياسي وناقدا للحداثة. واعتقد أن الادعاءات المعقلنة للحداثة تقيد بشكل حاد تقديرنا لتعليقات المفكرين القدماء، وتضعف ما تحمله في ركابها نمطيا من عرف تقليدي وحكمة، وتحرم مجتمعنا من دفة التوجيه بالضبط حين تبز قدراتنا التقانية جميع الحقب السابقة من التاريخ البشري. ليو شتراوس مشهور أيضا بزعمه أن المفكرين العظام كلهم كتبوا للعامة والخاصة، أي للاستهلاك العمومي بأسلوب يحافظ على الأساطير والأوهام المندمجة في أي مجتمع، وبطريقة فلسفية أكثر صدقا لا يميزها سوى

القراء العارفين. ويعتنق المفكرون الذين يكتبون ضمن التراث الشتراوسي عموما معظم رؤى شتراوس ذاته، وأسهموا في الفكر المحافظ المعاصر في أمريكا عبر تناول موضوعات واسعة تتراوح بين الجنسانية والحرب الحديثة[8]. التركيز هنا سيكون على الطبيعة الفكرية في جانب محدد من الفكر الشتراوسي، أي وجهة نظره المتعلقة بالحرب والإمبراطورية. يمكن أن نبدأ بتفكيك هذه المنطقة من الفكر الشتراوسي عبر التصدي لمفهومه للتاريخ السياسي، وهو مفهوم استمد إلهامه من كتابات المؤرخ اليوناني القديم ثوسيديديس[9]. زعم شتراوس أن التاريخ السياسي يشرع في كشف الحقائق الأبدية المتعلقة بالتاريخ البشري من خلال التنقيب الدقيق في أسسه وركائزه. أما المشاهدة التجريبية الدقيقة والتأمل الأريب الفطن فيشكلان أدوات المؤرخ السياسي، ويتمتعان بأهمية حاسمة في توليد المعرفة والحكمة. ولا يعتبر المؤرخ السياسي طرائق التفكير التي لا تعتمد على المشاهدة ولا تنغمر في التاريخ كما يتكشف فعلا، خصوصا الفلسفة، مفيدة جدا حين يتعلق الأمر بتوليد رؤية ثاقبة لسيرورة التاريخ البشري[10]. بكلمات أخرى، فإن الأرضية المؤسسة للتاريخ بالنسبة للمؤرخ السياسي هي الفطرة، ومنهجه تجريبي على الأغلب.

عند هذه النقطة، يشترك المزاج الفكري للتاريخ السياسي والتحليل السوسيولوجي الحديث في الافتراض ذاته، أي في فكرة أن حقائق البشرية يجب كشفها من خلال الدراسة المباشرة للبشر أنفسهم. لكننا نعلم أيضا أن المؤرخ السياسي يلتفت إلى الداخل، ويفسر سيرورة التاريخ البشري بالإحالة إلى «طبيعتنا البشرية»، التي تعتبر ثابتة أو لامتغيرة. أي أن المؤرخ السياسي يقتفي أثر تاريخ العالم بالعودة إلى خصائص الطبيعة البشرية الدائمة نسبيا. وتصدر عن هذه الطبيعة البشرية الثابتة أو اللامتغيرة سلسلة من المعايير السلوكية الإجبارية أو القهرية، وترسخ بالتالي أطر وحدود التاريخ الفعلي؛ إذن، ليست قصة البشرية، خصوصا الحرب والإمبراطورية، سوى تعبير تمثيلي

عن طبائعنا البشرية[11]. وجرى كشف الحقيقة العارية للإمبراطورية والحرب عبر كشف التاريخ الطبيعي ـ إن شئتم ـ للتاريخ البشري. كتب شتراوس يقول إن ثوسيديديس يعتبر «الطبيعة البشرية بمثابة الأرضية الصلبة لجميع تأثيراتها»[12]. ليس من السهل رؤية هذه العلاقة، لأن المؤرخ السياسي يدرك أن التاريخ خليط مزيف، يحجبه غطاء الغلو، ولبوس المزاعم، وبالتالي ينبغي اكتشاف الطبيعة المؤسسة للبشر في خضم جيشان الادعاءات التاريخية المصطنعة. لكن في المثال الأخير، يعتبر المؤرخ السياسي العالم تمظهرا للطبيعة البشرية التي لا يمكن في نهاية المطاف تعديلها أو ترويضها بشكل كاف. إن حكمة المؤرخ السياسي تأتي أخيرا لتخبرنا أن مسار التاريخ متجذر في طبائعنا الحبيسة.

ما هي الدروس المحددة للتاريخ التي يستخلصها المؤرخ السياسي النموذجي ثوسيديديس من تحليل الحرب البيلوبونية وفقا للفكر الشتراوسي؟ نعلم أن التاريخ في أعمق مستوياته مؤطر مجازيا بالتفاعل بين «الحركة» و«السكون»، «التعارض الجوهري» بين تلك القوى التي تحرك العالم وقوى الاستقرار والنظام والهدوء النسبي[13]. تسير هذه القوى في اتجاهين متكاملين: اتجاه أنطولوجي أكثر امتدادا يبدو فيه التوتر الأساسي وهو يتخلل العالم الطبيعي برمته، واتجاه تاريخي أكثر محدودية متعلق بالطبيعة البشرية و«المدن ـ الدول»[14]. وبالطبع يركز ثوسيديديس على الاتجاه الثاني، وخصوصا على لعبة الحركة والسكون في التاريخ البشري. علاوة على أن الفهم المجازي للتاريخ البشري باعتباره توترا متعاكسا ومتضادا بين الحركة والسكون، مرتبط بعدد من الموضوعات المشتقة من التاريخ، بما في ذلك البربرية واليونانية، والانسجام والتنافر المدني، والقوة البحرية والقوة البرية، والقلة والكثرة، والأهم: الجسارة الأثينية والاعتدال الإسبارطي، كمعنى ضمني في أعظم التوترات المتعارضة جميعا: الحرب والسلم. لقد كانت الحرب البيلوبونية حركة عظيمة في الحقيقة، بل أعظم حركة هزت أركان العالم القديم.

في التفسير الشتراوسي، تجذرت الاستعارات المجازية للحركة والسكون، التي مثلت التوترات التاريخية، في الصراع البشري بين رغبتنا في العدالة وخضوعنا المذعن للإكراه والإجبار[15]. فيما يتعلق برغبتنا في العدالة، تدرك دراسة ثوسيديديس الأهمية التي تضعها البشرية على «الحق» (أو احترام القانون الدولي)، رغم توكيدها على أن تأثيره ضعيف عند تطبيقه على شؤون الدول. وبالنسبة لخضوعنا للإكراه، تعترف الدراسة بأن الزعماء السياسيين لا يفوتون فرصة لزيادة قوة دولهم لأسباب تتصل بالخوف على وجه الخصوص، إضافة إلى أخرى ناجمة عن الطمع والشرف، وأن حقيقة هذه الدوافع الحتمية «تكره» أو تضبط الدول جميعا في علاقاتها مع بعضها بعضا. إذن، تظهر الحياة الدولية هذا التوتر بين «الرغبة في العدالة» ـ التي تنزع إلى السكون ـ و«الإكراه» ـ الذي يميل إلى الحركة ـ وليس كل منهما سوى تعبير عن طبائعنا البشرية الحبيسة. هذا التفاعل بين الحركة والسكون، والعدالة والقوة، يشيد التاريخ بدءا من صفحاته الافتتاحية. فهو أساسا وصف للطبيعة البشرية كما تتمظهر خلال العصر الهيليني.

بهذا المعنى أكره تنامي القوة الأثينية الإسبارطيين على السير في طريق الحرب. لكننا نعلم أيضا أن الأثينيين أكرهوا على إجبار إسبارطة وحلفائها. بكلمات أخرى، قدر على الأثينيين، المدفوعين بالحاجة ذاتها لتوسيع قوتهم وسلطتهم إزاء المدن ـ الدول الأخرى في العالم الهيليني وخارجه، تنبيه وإيقاظ العصبة البيلوبونية. والخوف أكره الإسبارطيين على الاستجابة لتنامي قوة أثينا، خوف متجذر في الحسابات والاعتبارات الطبيعية التي انبثقت من طبيعة علاقات القوة في الشؤون الدولية. أما المشهد المرعب للعلاقات الدولية الذي عبر عنه مبعوثو أثينا في ميلوس قبيل ذبح الذكور البالغين في الجزيرة وسبي نسائها وأطفالها (القوي يحكم الضعيف كلما أمكنه ذلك ـ وهو المبدأ الذي أصبح يعرف بـ«الأطروحة الأثينية»)، فقد أكده ثوسيديديس. وهو يعبر عن أكثر الحقائق جوهرية فيما يتعلق بطبيعة الحياة الدولية. لكنه مبدأ للعلاقات الدولية، ولا

يقتصر فقط على تبرير النزعة التوسعية الأثينية. ومثلما كتب ليو شتراوس: «توكيد الأثينيين على ما يمكن أن ندعوه بالحقوق الطبيعية للقوي، كحق يمارسه الأقوى بالضرورة الطبيعية، ليس مبدأ للإمبريالية الاثينية؛ إنه مبدأ عالمي شامل؛ ينطبق على إسبارطة مثلا إضافة إلى أثينا»[16]. عند هذه النقطة، تشابه القراءة الشتراوسية لثوسيديديس من جميع الجوانب القراءة المعيارية له في ميدان العلاقات الدولية، وهي صلة يقر بها الآن كاملة الكتاب الشتراوسيون المتأخرون، بمن فيهم ريتشارد بيرل وبيتر اهرنسدورف. واحد من أبكر التعبيرات عن هذا الفهم للعلاقات بين الأمم ـ المعروف باسم الواقعية في ميدان العلاقات الدولية ـ أتى من هانس مورغنثو، زميل ليو شتراوس في جامعة شيكاغو، في عمل شهير له بعنوان «السياسة بين الأمم»[17]. في هذا الكتاب، عرّف ثوسيديديس بوصفه مفكرا رأى الطبيعة الواقعية الأساسية للحياة الدولية بكل وضوح، ويفترض معظم التفكير بالعلاقات الدولية منذ ذلك الحين أن ثوسيديديس ألهم الفكر الواقعي (للعلاقات الدولية) في القرن العشرين[18].

يؤطر هذا التوتر الأساسي بين «الحق» و«القوة» المناقشات والمجادلات حول ثوسيديديس التي دارت بين الذين قبلوا تعاليم ليو شتراوس الأساسية. فالمفكر اليوناني يعبر عن سياسة القوة في الحياة الدولية، ويدرك المعضلات التي تواجه رجالات الدولة في العلاقات الدولية، الذين يأخذون في اعتبارهم «طبعا» الجوانب الأخلاقية أو الإنسانوية لحياتنا. نحن عاجزون عن مقاومة إغراء المصلحة والقوة، مثلما نحن عاجزون عن مقاومة التفكير بالحق والعدل. فطبائعنا الأساسية تجرنا نحو اتجاهين مختلفين، لكن رجال الدولة كلهم يدركون أن اعتبارات العدالة ضعيفة نسبيا في شؤون الأمم. وكما عبر بانغل بأسلوبه الأنيق: «بالرغم من أن وصف ثوسيديديس للحرب الطاحنة والمرعبة بين أثينا وإسبارطة، إلا أنه نما في قرائه واقعية مذعنة، تدرك الضعف اللزومي للعدالة بين الأمم، لكن دون تهليل لتلك الرؤية»[19]. لم يتخل الفكر الشتراوسي أبدا عن فكرة أن ثوسيديديس فهم الحقيقة الدائمة للأطروحة الأثينية. وزعمت آن نورتون بأن

الكتابات الشتراوسية المتأخرة التي تقلب رأسا على عقب تفسيرا مبكرا وأكثر اعتدالا لثوسيديديس كناقد للإمبراطورية لصالح آخر يراه مؤيدا لأثينا الإمبريالية، تفتقد كلية الالتزام الصادق بالنصوص المعرفية ذاتها[20]. ومهما قال المفكرون الشتراوسيون في محاضراتهم في جامعة شيكاغو، فإن النصوص الشتراوسية تبرز استمرارية مؤثرة حين يتعلق الأمر بثوسيديديس وتطبيع الإمبراطورية كليهما. ولربما على العكس من ذلك، يؤكد الفكر الشتراوسي المتأخر على ما دعي بالجانب «الأخلاقي» من الحياة بشكل يتجاوز حتى كتابات شتراوس ذاته في هذا السياق. الكاتب الشهير كليفورد اوروين، الذي وضع دراسته عن المؤرخ القديم تحت عنوان «إنسانية ثوسيديديس»، يبرز أهمية التوتر بين اعتبارات القوة والعدالة، ويساوي بين «الإنسانية» والكفاح لإدخال العدالة في ممارسة العلاقات الدولية. أما التلميح في عنوان العمل فيستحق الذكر نظرا لحقيقة أن الكاتب يعود مرارا وتكرارا وبصدق وأمانة إلى الحقيقة المركزية للأطروحة الأثينية التي تكمن كما يفهم في مركز التاريخ. لكن وفقا للشروط الشتراوسية، ينبغي أن لا تضلل القارئ الطبيعة الخداعية المتعمدة لعنوان اوروين، لأن عليه اعتباره بمثابة رد على نقد متوقع من القراء الأغرار الذين يفتقدون المعرفة والخبرة، رد مؤطر بطريقة لا تعرض للشبهات الأركان الشتراوسية الأساسية فيما يتعلق بالتاريخ البشري، والحرب والإمبراطورية، وسياسة القوة، والأطروحة الأثينية.

عمليا، يتعذر تمييز الفكر الشتراوسي حول الإمبراطورية عن قراءته لثوسيديديس. إذ يضم عمل المؤرخ القديم واحدا من أعظم دروس وعبر التاريخ. الإمبراطورية والحرب حقيقتان لا مفر منهما في الحياة الدولية. لقد قبل ثوسيديديس فكرة أن العالم لا يمكن تغييره؛ يمكن أن يكون أكثر أو أقل ابتذالا، لكن يستحيل تغييره. حنكة بيركليس مفضلة على خسة كليون، لكن في نهاية المطاف ينصحنا ثوسيديديس من خلال «البشرية البسيطة» و«واقعيته الكئيبة

لكن البشرية»، بالإذعان للطبيعة الواقعية الأساسية للحياة الدولية. ويصيغ الفكر الشتراوسي كله فكرة أن اللازمة الطبيعية لحكمة المؤرخ التاريخي هي تخفيف حدة حكمنا على الحرب والإمبراطورية. فالحكم الصارم يساوي كره الذات أو الإدانة العبثية لطبائعنا ذاتها. والمؤرخ السياسي في أي حقبة زمنية يرفض بعناد مثل هذا الازدراء غير المباشر للبشر، وحذر ليو شتراوس قراءه من مغبة إطلاق أحكام جائرة على حقائق الحياة الدولية التي كشفها المؤرخ العظيم.«لربما يمكن القول إن موضوع التاريخ السياسي هو القوة البشرية، لكن القوة ينظر إليها بتعاطف»[21]. وفي الحقيقة هنالك عناصر في الشتراوسية تتحول إلى إعجاب صفيق بالعظمة المزعومة للحرب والإمبراطورية، وإنجازاتهما الدائمة وميراثهما: «يسلم التاريخ السياسي بصحة اعتبار الحرية والإمبراطورية من أعظم أهداف البشرية (ولا يفتقد هذا الافتراض المنطق) ـ وأنهما محل إعجاب مشروع»[22].

الوصول إلى الإمبراطورية عبر ثوسيديديس

هل يمكن قراءة ثوسيديديس باعتباره مؤرخا يدافع ـ بالصدفة ـ عن الإمبراطورية الأمريكية؟ خلال القرن الماضي دار جدل مثير حول تفسير تاريخ ثوسيديديس للحرب البيلوبونية. وتشكل قطبا هذا الجدل مع نشر كتاب كورنفورد «تاريخ وأساطير ثوسيديديس» (1907)، وكتاب كوشران «ثوسيديديس وعلم التاريخ» (1929)[23]. على جانب كورنفورد من الجدل، يتبدى الزعم القائل إن الحرب البيلوبونية التي أرخ لها ثوسيديديس تأخذ شكل مأساة وفقا لتراث اسكيلوس، بينما تؤكد القراءة المقابلة أنه كان مراقبا علميا وفقا لأسلوب أبوقراط وديمقرايطوس[24] وبحسب الرأي الأول، استخدم المؤرخ الكبير التقنيات الدرامية لانتقاء واصطفاء وإعادة صياغة الأحداث بطريقة يرفضها المؤرخون المعاصرون، بينما يعتبر الثاني ثوسيديديس مراقبا حياديا للطبيعة الإنسانية والتاريخ البشري ضمن روح العلم الحديث. وفي حين أن الرأي الأول يرى أن ثوسيديديس بث في روايته للحرب البيلوبونية الحكم والإدانة، فإن الرأي الثاني

أكثر ميلا لاعتبار المؤرخ الكبير ناقلا موضوعيا للحقائق المتعلقة بالطبيعة البشرية والتاريخ الإنساني بغض النظر عما يعتقده ويفضله.

ينجذب الفكر الشتراوسي بكل وضوح نحو القراءة «العلمية» للتاريخ. فقد أنكر ليو شتراوس قراءة كورنفورد لثوسيديديس، خصوصا الصلة التي أقامها بين مذبحة ميلوس وهزيمة أثينا في صقلية، باعتبارها «قصصا تسر السامع»، أي أنه يرفض أطروحة كورنفورد باللغة التي استخدمها ثوسيديديس للهجوم على هيرودوتس[25]. وأكد شتراوس أن ثوسيديديس «لاذ بالصمت حول الآلهة أو ما هو ليس ببشري»، لكنه يظهر مرارا أن ميلنا إلى الإيمان بالآلهة يمكن أن يفرز تأثيرا عميقا في مسار الأحداث[26]. وبالتالي، فإن تأييد ثوسيديديس القوي لفضيلة الاعتدال ـ حكمة دلفية (نسبة لمجمع الآلهة في دلفي) تقبع في صميم الثقافة القديمة ـ يجب اعتباره شكلا من الفهم الفطن المؤسس على قراءته الحصيفة للتاريخ. ولم يكن تأييد ثوسيديديس لفضيلة الاعتدال براغماتيا خالصا بطبيعته، بل إنه يوازن حبه لإسبارطة مع تأييده لما أبدته أثينا من جرأة وبسالة وتصميم، حسبما يؤكد شتراوس. فالدول تواجه حدودا طبيعية في العلاقات الدولية يفرضها «منطق» الحياة الدولية، وهذا يشجع على الاعتدال؛ لكن الدول تميل أيضا إلى التوسع واختبار حدودها المقيدة كما فعلت أثينا. يظهر ثوسيديديس إعجابه بأثينا وإسبارطة كلتيهما. لكن في حين أن إعجابه باعتدال إسبارطة يتبدى في صفحات النص، إلا أن تأييده لأثينا، كما يعلمنا شتراوس، لا يظهر «إلا بين سطور نصه»[27]. بالنسبة لأغراضنا، تعتبر هذه الملاحظات أقل أهمية لأنها تدمج التأويلية الشتراوسية التبسيطية فيما يتعلق بالخاصة/ العامة بالدوغمائية، وفي الوقت ذاته هي أكثر أهمية لأنها تتيح لنا إبراز الزعم الشتراوسي بأن فضائل ثوسيديديس، أي تأييده المعلن لاعتدال إسبارطة وامتداحه المضمر لجرأة وبسالة أثينا، تقوم على أسس متجذرة في الفطرة البشرية حصرا.

ينكر الفكر الشتراوسي فكرة وجود جوانب ميتافيزيقية سامية في أسلوب تفكير ثوسيديديس. إذ لا يمكن لمعايير التاريخ السياسي إلا أن تكون سياسية

وتاريخية؛ والجدال الشتراوسي يتركز على أن جوهر التاريخ السياسي يعتمد على الاقتناع بأن الحياة الدولية لا تتأثر بالمعايير السامية، ولا تظهر مثل هذه اللحظات في التاريخ أبدا. وفي الحقيقة، تواجه حكمة الفيلسوف اختطار دونيتها أمام حكمة المؤرخ السياسي طالما تتصف الأولى بالسذاجة من حيث انقطاع صلتها التاريخية بموضوعها. يؤكد شتراوس أن «الفلسفة [بالنسبة لثوسيديديس] ليست لها نقطة دخول إلى الحياة السياسية.. فالحرب البيلوبونية.. مستقلة كلية عن الفلسفة»[28]. ومن أجل التشديد على هذا الجانب من التاريخ السياسي، يؤكد شتراوس أن أفلاطون اعتقد بقدرة الفلسفة على تشكيل الحياة السياسية بشكل مباشر، وبالتالي، فإن حكمه على الحياة السياسية أكثر صرامة، كما يقال لنا. لكن، وعلى العكس من ذلك تماما، لا يضمر ثوسيديديس مثل هذه المعتقدات، وحكمه على السياسة صامت أو معتدل. هنالك أمور في الحرب البيلوبونية ربما يمقتها، مثل الديماغوجي الاثيني كليون، وأخرى يبدي إعجابه بها، مثل الاعتدال الإسبارطي، لكنه لم يحجم عن تقديم الحقائق المتعلقة بطبيعة التاريخ البشري بغض النظر عن مدى تأثيرها الكريه والجارح في الآذان المهذبة والأذواق الرفيعة.

مع أن هناك دعوات ظهرت على مر السنين لتجنب قراءة ثوسيديديس بشكل حصري في إطار أي من القطبين التفسيريين[29]، فإن فرضية هذه المقالة تقوم على أساس أن القطبية التفسيرية ذاتها مؤطرة بفهم للعلم والمعرفة والحقيقة خاص بنا نحن الحداثيون المتأخرون. ففي هذا الجو ما بعد النيتشوي، يدق مثل هذا الإسفين بين الحكم والعلم، بين أفكار الخير والصلاح والدعاوى المتعلقة بالحقائق السوسيولوجية التي لم يفسدها الزمن، بين اللحظات السامية للفكر وجوانب الفهم الأكثر واقعية وقربا إلى الفطرة. لقد أعاد انتقاد نيتشه المعادي للميتافيزيقيا إنعاش وإحياء رفض الحداثة للفلسفة الذي بدأ بشكل جدي مع مادية هوبز وهجومه اللاذع على «المدارس والمذاهب». وعلى وجه الخصوص،

رسخ إنكار نيتشه للأساس السامي للمعرفة (مذهب الشك أو المنظور الذاتاني النيتشوي) ورفضه للأساس المتعالي للأخلاق (العدمية)، قطبية حادة في العلاقة بين الفلسفة والتاريخ، وسيكون من الصعب التقليل من أهمية تأثيرها في القرن الماضي. وبحسب تعبير ايريك فويغلين، يمكن جوهرة الحداثة ذاتها فيما يتعلق بـ«بفطريتها الراديكالية»؛ نحن نتقدم وكأن من الممكن الفصل بين جانبي الكينونة والفكر بشكل صارم وسريع، وغالبا نحو تطوير وجهات نظر أحادية الجانب (كتلك التي تبناها هوبز أو نيتشه) حول تشكيلة متنوعة من الموضوعات الفلسفية والتاريخية[30].

الزعم المتكرر بأن ثوسيديديس مال على الأرجح إلى واحد أو آخر من هذين القطبين يكشف المزيد عن نزوعنا إلى الإصرار على الفصل الجذري بين اللحظات الفطرية والسامية للفكر بدلا من الكشف عن أفكار المؤرخ القديم نفسه[31]. يجب علينا تخفيف حدة هذا الفصل الصارم وعدم الإصرار على أنه قد وجه بهديه الطبيعة التحليلية للتقاليد التراثية الفكرية في الأزمنة الغابرة. وبالتالي، يمكن أن نبدأ بتقديم نقض وجيز يعاكس القراءة الشتراوسية لثوسيديديس عبر تذكر ملاحظات الفريد نورث وايتهيد: «هذه الفكرة حول المؤرخين، حول التاريخ الخالي من الأحكام الأخلاقية المسبقة، الذي لا يعتمد على المبادئ الميتافيزيقية والتعميمات الكونية، ليست سوى وهم من نسج الخيال»[32]. تعرض هذه المقالة للتحليل رأيا مفاده أن ثوسيديديس لم يتجاهل أفكار الخير والصلاح ولم يرجئ الحكم على الأفكار المتعلقة بـ«الحياة المعيوشة بشكل صحيح»، بقدر ما روى تاريخ الصراع بين الإمبراطوريتين الإسبارطية والأثينية. إن تاريخ ثوسيديديس يرسخ بشكل واضح الخطوط الأساسية للسلوك المثالي الذي نادرا ما نقابله في عالم تطحنه الحرب. لقد استهدى ثوسيديديس بشعور كوني التوجه؛ فالتاريخ متشرب بإحساس بعالم أصبح سيئا. ولم يكتف أبدا بقياس الأشياء كما يفعل من يتبنى المذهب التجريبي ويصمم على كشف الحقائق السوسيولوجية أو البشرية في العالم؛ التاريخ لم ينحصر أبدا في الفطرة.

والطبيعة التحليلية للحرب البيلوبونية لا تعتمد على إلغاء الجوانب الأكثر سموا للفكر وفقا لأسلوبنا نحن (الحداثيون المتأخرون)، وقراءة التاريخ بهذا الشكل تعني تفسيره بطريقة تركز على ادعاءاتنا الفكرية ـ ادعاءات جذبت انتباه العين النقدية لوايتهيد وسواه ـ لا على عمل ثوسيديديس.

تؤكد هذه المقالة على أن أعمق اللحظات الإيديولوجية لقراءة الشتراوسيين لثوسيديديس هي (وفي هذا مفارقة) رفضهم الحداثي للعنصر السامي/ المعتالي في التاريخ، وهذا خطأ تفسيري يفترض انقطاعا حادا بين التأمل الميتافيزيقي والسوسيولوجيا التجريبية، وهو رفض اتكأ في نهاية المطاف على الزعم بأن المؤرخ اكتفى بكشف الحقائق حول الطبيعة البشرية ونزوعها للحرب والإمبراطورية. تجذب قراءتهم الانتباه لأن الفكر الشتراوسي مغرم بجني ثمار الفكر القديم من أجل فضح شرور الحداثة، ومن هنا أتت مفارقة قراءتهم الإيديولوجية لثوسيديديس القائمة على تأويله وتفصيله ليناسب آراءهم، من موقف حداثي متميز. ومن المفارقة أيضا أن الفكر الشتراوسي رأى بين الحين والآخر مدى خرق الإنكار المتفاخر لفكرة الحكم في العلم الاجتماعي الحديث (33). فالخطأ التفسيري للحداثة يمنع المفكرين الشتراوسيين من رؤية مدى غنى عمل ثوسيديديس، ويؤدي على وجه الخصوص إلى إنكارهم لدعوى وجود جوانب كونية أو ميتافيزيقية سامية في التاريخ. حين نحرر أنفسنا من مثل هذه القيود التفسيرية، ونفكك العناصر المتشابكة في فكر المؤرخ القديم، يمكن أن نبدأ برؤية أن الجوانب الميتافيزيقية السامية للتاريخ توفر مصدرا لنقد الحرب والإمبراطورية، وترسخ استمرارية بين المؤرخ والفعل الانعكاسي الشاعري للعصر. ومع أن الاهتمام الأول لمفكري عصر ثوسيديديس انصب على سلامة واستقرار المدن، خصوصا بلوى التعصب الفئوي الذي يمكن أن يؤدي إلى النزاع الأهلي، إلا أن مسألة الحرب والإمبراطورية برزت في تفكيرهم. ومن المؤكد أن الميل للاحتفاء بالحرب أو حتى تمجيدها كان يحوم في الجو، كما يبدو واضحا في الفقرة التالية المأخوذة من «الإلياذة»:

على الرجال الذين أصدر زوس حكما عليهم، شيبا وشبانا،

أن يصلوا بحروبنا الدموية إلى الخاتمة المريرة

إلى أن نسقط ونردى، حتى آخر رجل[34].

لكن هذا التيار الثقافي لم يترجم إلى استسلام وإذعان أمام الحرب والإمبراطورية لدى معظم المفكرين الإغريق. فالغرض الرئيس لملاحظاتهم عموما يشير بقوة إلى أنهم اعتبروا الحرب على الأغلب مرضا عضالا. وتظهر هذه السمة المتوارثة للنقد القديم في مسرحية يوريبيديس «امرأة طروادة». تفتتح المسرحية بتفجع بوسيدون (إله الزلازل والبحر) على تدمير طروادة ونهبها، وبذلك يعيد يوريبيديس صياغة الحدث الجلل للماضي كأعظم مناسبة للحزن والبؤس:

كم أنتم عميان،

أنتم يا من تدوسون المدن وتدمرونها،

وتتركون المعابد في وحشة مقفرة،

وتخربون القبور، الحرمات التي لم تطأها قدم،

حيث يرقد أموات الأقدمين؛

لسوف يختطفكم الموت سريعا![35].

في العصر ذاته، زعم الشاعر الهزلي اريستوفانيس أن السلام الدائم الذي ينتقل من جيل إلى جيل أمر طبيعي وممكن. في مسرحيته «الاخاريون»، أول مسرحيات السلام الشهيرة (التي تشمل «السلام» و«ليزيستراته»)، منح البطل ديكايبوليس (الذي يعني اسمه «المدينة العادلة») ثلاثة خيارات لعقد سلام خاص مع إسبارطة (تخيلوا مسرحية تدور حول مزارع من نبراسكا يفاوض صدام حسين لعقد معاهدة سلام خاصة بينهما!). وكل عرض للسلام يتبدى مجازيا على شكل قربة مليئة بالنبيذ:

ديكايوبوليس: هل هي لديك؟

امفيثيوس: أجل، هنا ـ ثلاثتها ـ تذوقها. هذه معتقة لخمس سنوات.

خذ رشفة.

ديكايوبوليس: اف! [يبصق الخمر ويبعد القربة عنه].

امفيثيوس: ما الخطب؟

ديكايوبوليس: إنها مقززة! تفوح منها رائحة الزيت وأحواض السفن.

امفيث: [يقدم له قربة أخرى أكبر حجما] حسنا، جرب المعتقة عشر سنوات.

ديكايوبوليس: [بعد تذوقها] لا. هذه طعمها لاذع. أراهن أنها بحاجة إلى مزيد من البعثات الديبلوماسية، ومحاولة إقناع الحلفاء بإرسال جنودهم حين يندلع القتال مرة أخرى.

امفيثيوس: [يقدم له القربة الثالثة] آه، الآن، هذه هي الحقيقية. ثلاثون سنة، في البر والبحر.

ديكايوبوليس: [يعب من القربة، ويرسم بالتدريج ابتسامة هائلة على وجهه] وحق أعياد ديونيسيوس كلها! لها مذاق شراب الآلهة وطعامها[36].

تذكر قربة الخمر الأولى ديكايوبوليس بالأنشطة الأثينية الإمبريالية، مثل صناعة السفن، ويربط الثانية في ذهنه باستراتيجيات بناء التحالفات خلال الهدنة، ولذلك يرفضهما معا. الثالثة وحدها، المترعة بخمر يناسب طعام الآلهة المقدس، والذي تعتق على مدى جيل كامل، هي المقبولة للمزارع الأثيني. النقطة الأساسية تؤكد على إمكانية إقامة سلام دائم، سلام لا ينشأ ويتعزز إلا حين تمنح الأجيال الأكبر عمرا فرصة نسيان الحرب الراهنة والأجيال الأصغر عمرا النضج في بيئة يخيم عليها السلام.

تعبر هذه الأمثلة الشاعرية عن عواطف وأحاسيس لم تكن استثنائية في تعليقات وآراء الأقدمين. ويمكن الزعم بأن الشعراء من أمثال اسكيلوس وسوفوكليس ويوريبيديس واريستوفانيس، والمؤرخ هيرودوتس، والفلاسفة، مثل أفلاطون وأرسطو، جمعتهم هموم ومخاوف جدية من الحرب والإمبراطورية، لاسيما إمبراطوريتي فارس وأثينا. أما الإدانة الشديدة والجدية للحرب في ثلاثية اسكيلوس «اوريستيان»، أو تقريع اريستوفانيس الذي لا يلين للديماغوجيين الأثينيين خلال بعض مراحل الحرب البيلوبونية، وإعادة عرض هذه المواضيع ذاتها في وقت لاحق في مسرحية «ليزيستراته»، أو تصوير هيرودوتس التراجيدي للمخططات الإمبراطورية الفارسية، أو انتقاد أفلاطون التأملي للإمبراطورية، فتشهد جميعا على هذا القلق العام لدى المفكرين الهيلينيين. وعند النظر إليهم معا، نرى أنهم شنوا هجوما انتقاديا مستداما على الحرب والإمبراطورية، كل من موقعه الفكري المتفرد.

تاريخ ثوسيديديس يتوافق مع هذا التراث. واللافت أن روايته للحرب لها مسحة تراجيدية شاعرية، خصوصا في فصولها الأخيرة. فالأسلوب التراجيدي يعتمد في أكثر مستوياته جوهرية على فكرة النظام الكوني بحدوده المحرمة. وضمن هذا الكون ينبغي على الجنس البشري الانتباه وعدم انتهاك النظام الطبيعي، لأن هذا الانتهاك يحتم استدعاء أياد تصحيحية. وتقدم لنا التراجيديا، كشكل أدبي، موضوعا (على مستوى الفرد أو الأمة) يرضخ لإغراء المغالاة في التفاخر والتكبر، أي المبالغة في التفاؤل، وهو شعور متجذر في صلب العجز عن إدراك مكان المرء في النظام الطبيعي للأشياء. في الحالة النمطية، تقوم الآلهة بوظيفة الحامي الخارق القدرة للنظام الطبيعي للأشياء، خصوصة الربة نيميسيس. أما البطل التراجيدي (أو الأمة) فيعاني في مواجهة هذا الانتهاك من انقلاب القدر عليه، ويفهم ذلك باعتباره انتقاما للآلهة من البشر الفانين المتكبرين.

في التاريخ، تبع المذبحة الأثينية في ميلوس مباشرة وصف الحملة على صقلية. لقد هزت المذبحة أثينا في الصميم، وأي قارئ للتاريخ سيعرف أن القوات الأثينية المرعبة تلقت هزيمة منكرة في صقلية. وعلى الفور، يؤكد ثوسيديديس أن الأثينيين حين شنوا حملة صقلية «كانوا غالبا لا يعرفون حجم الجزيرة وعدد سكانها، من الهيلينيين والأهالي، ولم يدركوا أنهم يخوضون حربا صعبة تماثل في ضخامتها حربهم ضد البيلوبونيين»[37]. وبالرغم من تحذيرات نيسياس من حماقة العدوان البعيد المدى والواسع النطاق، إلا أن الأثينيين ثملوا بأمجادهم وتكبروا وتجبروا، وتشبثوا بالهجوم على صقلية. وحين استعدت «هذه القوة المكلفة والأنيقة المظهر من الجنود الهيلينيين، التي لم يكن لها شبيه حتى ذلك الوقت» لركوب السفن، يخبرنا ثوسيديديس أن جمهرة من الناس احتشدت على الشط «لرؤية المشهد وإبداء الإعجاب بالطموح اللامحدود للحملة». صبت أقداح الخمرة، وتليت الصلوات، وانطلق الأسطول الرائع «الأوسع مدى» نحو الكارثة[38]. أصيب الأثينيون المتغطرسون بهزيمة مهينة في سيراكيوس، ولسوف يخسرون الحرب البيلوبونية أمام إسبارطة في نهاية المطاف.

يستمر سرد ثوسيديديس ضمن تراث التاريخ التراجيدي لهيرودوتس. ففي هذا الإطار يعرض تاريخ هيرودوتس نهوض وسقوط أربعة أباطرة فرس متتابعين، بدءا بقورش عام 559 ق.م وانتهاء باحشويروش الذي تلقى هزيمة ساحقة ونهائية في بلاتايا في صيف عام 479 على أيدي الجنود الإسبارطيين. وكان كل ملك في الإمبراطورية الفارسية ــ قورش (559 ــ 529 ق.م)، قمبيز (529 ــ 522)، داريوس (521ــ 486)، وابنه احشويروش (486 ــ 465) ــ يتبع دورة محددة مؤلفة من ترسيخ الحكم، والتوسع، ثم الهزيمة العسكرية قرب نهاية حكمه. وكل هزيمة تكون نهائية وماحقة لا قيامة بعدها؛ وتأتي في أعقاب مشورة حكيمة تنصح الإمبراطور المعني بإعادة النظر في خططه التوسعية؛ ويبدو كل إمبراطور بمثابة انتهاك حي ومجسد لقواعد وحكم الآلهة في دلفي، مثل «اعرف نفسك» و«لا تبالغ في

التطرف»، حيث يستسلم للاعتقاد بأنه نصف إله، وأن توسع مملكته ليست له حدود طبيعية. وفي لحظة استيلائه الطائش على أراضي الآخرين تنقلب حظوظه بشكل دراماتيكي. وحكاية هيرودوتس للغزوات الفارسية موضوعة في قالب قصة أباطرة أتوا من النأي واستحقوا عقاب الآلهة[39]. لكن ثوسيديديس يتحرر أيضا من إسار هيرودوتس وقيد الفعل الانعكاسي للشعراء. إذ لم تعد الآلهة تظهر بشكل سافر في ميدان المعركة كما فعلت في «إلياذة» هوميروس، كما لا تظهر رغباتها بشكل غير مباشر على هيئة وحي أو أحلام مثلما كانت الحال عند هيرودوتس. فقد بهتت غالبا في الصورة التي رسمها ثوسيديديس؛ وتبدو اليد التصحيحية للربة نميسيس أشبه بقوة تصحيحية مبهمة ومتجذرة في نظام الوجود. أما العنصر الميتافيزيقي السامي لدى ثوسيديديس، إذا استخدمنا اللغة التكميلية، فلا يتقلص إلى مستوى حضور أو غياب الماورائي في شكل مجسد.

لا تحرس شرطة الآلهة النظام الكوني في التاريخ. لكن الشعور بوجود نظام صحيح ومناسب للأشياء أمر واضح لا لبس فيه، كون فيه تراتبية واضحة وإحساس جلي بحدود لا يمكن انتهاكها. في بعض الأحيان ميز ليو شتراوس بين «الآلهة» و«القانون الإلهي» و«الإلهي»، في مناقشاته لثوسيديديس، وهي مناقشات كان ينبغي أن تفتح الباب أمام إدراك الجوانب الميتافيزيقية السامية في فكر ثوسيديديس في صلتها بالكينونة كما تدرك على أوسع نطاق، لكنها لم تتجاوز ذلك أبدا[40]. يمكن رؤية إحساسات ثوسيديديس الكونية حين نلاحظ أن السرد في التاريخ يرسخ أولوية وتفوق العنصر العقلاني للكينونة على العنصر الشهواني أو الحيواني، وبالتالي فهو يمجد فضائل الاعتدال وضبط النفس والامتناع عن المبالغة التي تصدر عن هذا التفوق والأولوية. أما الموقع السردي لهذه الإحساسات الكونية فهو الفكرة المنبعثة من البشر التي تتخلل التاريخ، فكرة تعبر عن التوتر بين الأبعاد الشهوانية لوجودنا وامتلاكنا للمنطق والعقل؛ فمعنى كوننا بشرا هو أن نتموضع وجوديا في منطقة وسطى بين قطب الشهوات المجردة التي

نتقاسمها مع باقي الحيوانات وقطب السمة الإلهية من العقل المحض[41]. ولا يمكن لنا تجاهل البعد الشهواني برمته، لكن في الشخص الفاضل أو القائد الكفء، يجب إخضاع الشهوات والأهواء والعواطف إلى الجانب المتأمل والمتفكر من النفس. هذا التوتر الوجودي الذي يقع في صميم الكائن البشري فُهم ثقافيا بأنه صراع بين اللوغوس (الكلام العقلاني المفكر) والعمل (الفعل). ففي القائد الصالح الكفء يشمل التوازن بين القول العقلاني والفعل الهيمنة الظاهرة للأول، وحين يكون التوازن صحيحا تمتلك مُثل دلفي أفضل فرصة للحفاظ عليها. القائد الصالح الكفء يجب أن يكون مفكرا ومتأملا ومترويا، ولا يندفع متعجلا بطيش وتهور للفعل. وفضيلة الاعتدال هي النتيجة الطبيعية للتوازن المثالي في الشخص. والمهم أن هذا الإحساس بالصلاح والفضيلة يعبر عنه بالحدوس الميتافيزيقية، ويعبر عن التناغم بين الكائن البشري والنظام الكوني للأشياء. ولسوف يعيد أفلاطون فيما بعد صياغة هذه الأفكار التقليدية (أو المعتقدات) في نظرية معرفة فلسفية.

لقد صاغ أفلاطون تقسيما ثلاثي الأطراف للنفس أو الروح: العنصر الشهواني والعنصر الروحاني والعنصر العقلاني، تتصل بكل منها فضيلة سامية ـ الاعتدال، الشجاعة، الحكمة. فالشخص الفاضل يتميز بامتلاكه روحا منظمة بشكل صحيح مع عنصر عقلاني/ منطقي يحكم العنصر الشهواني، إضافة إلى عنصر روحاني يوفر المساعدة والعون. والأهم أن الصيغة الأفلاطونية تحافظ بشكل صارم على روح الثقافة القديمة، وبالتالي فإن الشخص الذي يستسلم للشهوانية المنفلتة من عقالها لا يمكن أن يكون فاضلا أو عادلا، أي بالتعبير الأفلاطوني، لن يصل إلى حافة الفضيلة الشاملة للنفس المنظمة بالشكل المناسب.

فكرة ثوسيديديس عن الشخص الفاضل أو القائد الصالح، على العكس من فكرة أفلاطون، ليست مؤسسة على نظرية معرفية فلسفية سامية أو متعالية، بل تعتمد على إحساسات ميتافيزيقية حول النظام الصحيح للأشياء كما يعبر عنها

من خلال المعتقدات الثقافية التقليدية. فالشخص الفاضل يوازن بين القول المنطقي والفعل بشكل صحيح مع إعطاء الأول الأفضلية والتفوق. ويكشف التاريخ عن عدد من القادة الصالحين والزعماء الأخيار في مسار السرد، بمن فيهم الملك الإسبارطي اركيداموس، وثيميستوكليس، وبيركليس، وديودوتس، ونيسياس في الجانب الأثيني. لكن هؤلاء القادة المتميزين بالتفكير العميق والاعتدال الحصيف، غابوا تدريجيا عن النظر نتيجة تأثير القادة المتصفين بالتعجل والتهور والاندفاع بدون تبصر، والذين يهاجمون كل فكرة تتعلق بالتأمل المتروي والحوار العقلاني[42]. إن صفات القيادة المتجذرة في العناصر الأدنى مرتبة للكائن البشري تندمج في الديماغوجي، الذي يتصف بالاندفاع والطيش والتهور، ويشبع شهوات جماهير العامة، أو يسيطر عليها أو يتلاعب بها، من أجل مكاسبه الشخصية ودون أن يشعر بوخز الضمير ـ الديماغوجي الأثيني النموذجي الذي يظهر في رواية ثوسيديديس للحرب هو كليون[43]. تعرض الأثيني الشهير الذي صعد إلى السلطة بعد موت بيركليس لهجوم متواصل من الشاعر الكوميدي اريستوفانيس، خصوصا في مسرحيته «فرسان». لكن بالرغم من هجمات اريستوفانيس الهجائية كلها، فإن ثوسيديديس هو الذي وجه أخطر تهمة للقائد الشهير. وتبدو سمات التطرف وعدم الاعتدال جلية في الجدل الذي دار حول ضرورة إلغاء قرار الحكم على جميع الرجال الميتيليين بالموت بسبب انتفاضة قام بها بعضهم.

اعترض كليون على إلغاء أي قرار متخذ رغم حقيقة انزعاج الأثينيين منه، وجسد خطابه اللاتوازن بين القول المنطقي والفعل، وهذا من السمات المميزة للديماغوجي. يقدم ثوسيديديس كليون كقائد كان «مشهورا بين الأثينيين بشخصيته العنيفة»[44]. وهو ينتقد الأثينيين لأنهم «مولعون بالاستماع للخطب» إضافة إلى فشلهم في سلوك مسلك الإمبراطوريين: «أنتم مجرد ضحايا لمتعة الاستماع التي تستحوذ عليكم، وأشبه بجمهور يجلس أمام قدمي محاضر محترف لا في برلمان يناقش شؤون الدولة»[45]، مثلما كان يوبخهم. ويزعم أن أفضل عقاب هو حين «تتبع الأعمال الانتقامية الجرم على الفور»، لكن الأثينيين للأسف «يكتفون بالاستماع لوصف وبيان» الفعل. ويحذر

بأسلوب كاشف من أن الكلام المنطقي لا ينسجم مع الإمبراطورية: «أما بالنسبة للخطباء الذين يدخلون السرور على مستمعيهم بحججهم وبراهينهم، فيجب أن يقصروا منافساتهم على موضوعات أقل أهمية، لا على مسألة قد تضطر فيها الدولة إلى دفع ثمن باهظ لمتعها السطحية»[46].

حين وقف خصم كليون، ديودوتس، ليؤيد إلغاء القرار الأصلي، شرع على الفور في مهاجمة الافتراضات الأساسية لخصمه:

أنا لا ألوم أولئك الذين اقترحوا حوارا جداليا جديدا حول موضوع ميتيلين، ولا أؤيد الرأي الذي سمعناه، فمن الأمور السيئة تكرار مناقشة القضايا المهمة. إن التعجل والغضب، برأيي، هما من أصعب العوائق المعرقلة للمشورة الحكيمة ـ التعجل الذي يرافق الحمق عادة، والغضب الذي يمثل علامة مميزة للعقول البدائية والضيقة[47].

وفي مسعى منه لتقرير المسار المناسب للسياسة، يشدد ديودوتس على أهمية الحث والإقناع والحجة النزيهة، وتجنب الشك في نوايا الناس، والصدق والبساطة في الكلام، والثقة، والتعاطف والرحمة، خصوصا في الحالات التي تكون فيها الظروف قاهرة. يوجز كلام ديودوتس جوهريا الخطوط الرئيسة للتوازن المثالي بين القول المنطقي والعمل، ومن ثم قدراتنا التأملية من ناحية، وشهواتنا وعواطفنا من ناحية ثانية، وتوفر احتجاجاته واعتراضاته نموذجا للقائد الصالح الكفء[48].

عند هذه النقطة يجب التوكيد على أن الزعم الشتراوسي بأن القائد الصالح الكفء يواجه خيارا جوهريا بين المصالح من جهة والحق من جهة ثانية، وأن الحق يشكل إلى حد ما إنسانيتنا، يعاني من شرخ خطير[49]. إذ لا يعرض ثوسيديديس أبدا مشكلات القيادة الصالحة الرشيدة أو الإدارة الحكيمة السديدة لشؤون الدولة بلغة خارجية لا تتصل بدراما الروح. فالقائد الصالح الكفء لا يواجه خيارات طوعية بين المصلحة من جهة والحق من جهة أخرى،

وكأنما هذه الخيارات منبتة الصلة عن التوتر الوجودي الكامن في صميم الكينونة الإنسانية. لا شيء في أسلوب تفكير ثوسيديديس يروج لفكرة أن نسيج التجربة يتحلل ويتخذ شكل خيارات حول «المصلحة» و«الحق». بل إن الكفاح من أجل قيادة رشيدة هو كفاح تخوضه الروح/ النفس ـ أي داخل الكينونة الإنسانية حين تفهم بشكل سام ومتعال ـ وطبيعة ذلك الكفاح ليست متوقفة على الخلطة المشوشة من الخيارات الفورية التي تظهر في الحالة التاريخية الطارئة. والأهم أن الأولوية تعطى للعقل كقطب جاذب في هذا الكفاح؛ وعلى القائد الصالح الكفء أن يتمتع بالتفكير التأملي العميق ـ نقطة. انتهى. إن السياسة الحكيمة والمعتدلة تنبثق من الاعتبار والتبصر والتأمل والتروي.

في الغرض العام، تعتبر «الحرب البيلوبونية» تاريخا لانحطاط وتدهور حال القادة الصالحين الأكفاء القادرين على تبني سياسات معتدلة مترعة بالتفكير المتأمل المتروي ومصاغة بعناية. وتفاقم هذا الانحطاط بسبب الطاعون في أثينا واندلاع نزاع أهلي في شتى أرجاء العالم اليوناني. ومثلما كتب ثوسيديديس عن الحرب الأهلية في كورسايرا:

ما اعتاد الناس وصفه بالعمل العدواني المتهور أعتبر الآن شجاعة ينتظر أن يتحلى بها عضو الحزب؛ والتفكير بالمستقبل والتروي مجرد طريقة أخرى للاتهام بالجبن؛ وأي فكرة حول الاعتدال مجرد محاولة لتقنيع الشخصية الفاقدة للرجولة؛ والقدرة على فهم مسألة من جميع جوانبها أمر لا يناسب العمل على الإطلاق[50].

شملت علامات هذه الرثاثة في الحياة السياسية الأثينية انحطاطا في القوة الكابحة للعرف والتقليد، والمغالاة في التباهي والرضا الذاتي، والأنانية والطموح الزائد، والأمل الوهمي، والافتقار العام للتبصر والتدبر، والافتتان والشغف[51]. أما نقطة تجمع هذه الإخفاقات فقد حددت بشكل مثير ومؤلم المزاج السردي العام للحوار حول ميلوس والجدل حول صقلية. إذ منح سكان ميلوس خيار الاستسلام للأثينيين. وفي مسار الحوار زعم الأثينيون أن احتمال وقوف الآلهة إلى جانبهم يماثل وقوفها إلى جانب سكان الجزيرة[52]، لكنها عاقبت هؤلاء لمجرد

أنهم أملوا بالأفضل[53]، وعنفوا أهل الجزيرة بسبب إخفاقهم في رؤية أن الإسبارطيين لن يأتوا لنجدتهم[54]، وسخروا من قلة الجرأة والجسارة لدى الإسبارطيين[55]. هزم سكان الجزيرة أمام الأثينيين طبعا ، لكن أي قارئ سوف يدرك المفارقة الساخرة في مثل هذا التعنيف الذي يأتي من دولة سرعان ما ستفتن بفكرة توسيع إمبراطوريتها، وتعتمد بشكل سافر على الأمل، وتفشل في اتباع النصائح والتحذيرات، وتعاني من نقص خطير في التبصر والتدبر، حين تفتح بتعجل وتهور جبهة ثانية للحرب في صقلية[56].

ناشد نيسياس الأثينيين وهو يحاول إقناعهم بالعدول عن الحملة الصقلية: «تذكروا أن النجاح يأتي من التبصر، ولا يناله أحد بالتمني»[57]. وفي الحقيقة، يمكن تقديم الحجة على أن تدخلات نيسياس خلال الجدل حول الحملة الصقلية تشكل لحظة الذروة في التاريخ. لأن النتيجة الناجمة عن القيادة الصالحة الرشيدة، والحوار المتفكر الدقيق، والسياسات الحصيفة المتروية، هي اعتدال مسلك الدولة، ووجود هذه السمات والنسق يمنعها من الانزلاق نحو تضخيم وتوسيع إمبراطوريتها بدون ضوابط. أما انحطاط القيادة الصالحة الرشيدة وتدهور حالها فيتزامنان مع التطرف والمغالاة في مسلك الدولة؛ والتاريخ يعقد صلة واضحة بين القيادة الصالحة الرشيدة، والسياسات المتبصرة الحصيفة، والاعتدال. يتخلل ولع ثوسيديديس باعتدال الإسبارطيين العمل برمته. وامتداحه لبركليس يربط بشكل جلي ذكاءه وتبصره بالاعتدال[58]. كما أن كلام ديودوتس في الجدل حول ميتيلين مشبع أيضا بروح الاعتدال والتحفظ والامتناع عن المبالغة. ومن الأمور الكاشفة أن نيسياس حين نهض ليحذر مواطنيه الأثينيين من مغبة التوسع المنفلت من عقاله، سلم بحقيقة أنه لا يستطيع إقناعهم بالعدول عن مغامرتهم بالحجة البرهانية. ولا يمكن للمرء إلا أن يقارن ورطة نيسياس المأزقية بمديح ثوسيديديس السافر لبيركليس: «ومن المؤكد أنه [بيركليس] حين كان يرى أنهم [جماهير العامة] يبالغون في الثقة

بالنفس، يعيد إليهم إحساسا بالأخطار التي تدهمهم؛ وعندما كانوا يشعرون بالإحباط دون سبب وجيه يعيد إليهم هذه الثقة»[59]. لكن نيسياس افتقد تلك الملكات القادرة على الإقناع في لحظة كان فيها جمهور العامة مترع بالثقة المفرطة بالنفس، واختار بدلا من ذلك التركيز على الاستحالة اللوجستية للمهمة: «أعلم أنه لا يوجد لدي كلام يملك ما يكفي من القدرة على تغيير شخصياتكم، وسيكون من العبث نصحكم بحماية ما لديكم وعدم المخاطرة بما تملكون من أجل احتمال مشكوك فيه في المستقبل. لذلك سوف أقتصر على إظهار حقيقة أن هذا التوقيت خاطئ للقيام بمثل هذه المغامرات وأن أهداف طموحاتكم لن تتحقق بسهولة»، كما اعترف نيسياس وفقا لثوسيديديس[60]. وحين نهض للكلام مرة أخرى، بذل جهدا يائسا لتضخيم مسألة المتطلبات اللوجستية للحملة، لكن الأثينيين المغرورين «أصبحوا أشد حماسة من قبل»، وجرت الموافقة على حملة صقلية. وكان ثوسيديديس قد أخبرنا بأن بمقدور بيركليس منع ارتكاب «خطأ» الحملة الصقلية[61]، لو كان حيا يرزق.

في اللحظات الفاصلة بين خطابي نيسياس (اللذين يمثلان ذروة الحدث) نهض السياسي المهيب والجنرال اللامع السيبياديس لتقديم الحجة لصالح الحملة الصقلية، ويصوره ثوسيديديس كشخصية مسرفة وأنانية، تطالب بإلحاح بالتوسع غير المنضبط للإمبراطورية الأثينية:

وليس من الممكن بالنسبة لنا أن نحسب بالضبط، مثل مدبرات شؤون المنازل، حجم الإمبراطورية الذي نريد. والحقيقة أننا بلغنا مرحلة نحن مجبرون فيها على التخطيط لفتوحات جديدة والتشبث بما لدينا، لأننا معرضون لخطر الخضوع لسلطة الآخرين إلا إذا جعلناهم تحت سلطتنا[62].

في اللحظة الحاسمة من التاريخ عبر عن «الأطروحة الأثينية» شخص هو التجسيد الحي للإسراف والإباحية والتطرف والمغالاة. ويستحثنا حكم التاريخ على تمييز الصلة الرابطة بين انحطاط القيادة الرشيدة من جهة واستمرارية الحرب،

خصوصا الحملة الصقلية، من جهة أخرى. أما تأملات بلوتارك حول كفاح نيسياس فقد استهدت بقراءته الدقيقة لمثل هذه الصلات في عمل ثوسيديديس:

في هذا الوقت أيضا، بدأ السيبياديس يتحول إلى مركز قوة في أثينا. ولم يكن ديماغوجيا بشكل كلي مثل كليون. لكن مثلما يقال إن خصوبة التربة المصرية تنتج الترياق الشافي والسم القاتل، كذلك كان هو واحدا من أصحاب تلك الطبائع الاستثنائية، حيث امتلك إمكانيات هائلة للخير والشر في آن معا، وأنتج أعمق وأوسع التغيرات نطاقا في الشؤون الأثينية. أما النتيجة فكانت عدم امتلاك نيسياس الوقت الكافي، حتى بعد التخلص من كليون، لجلب الاستقرار إلى السياسة الأثينية أو المواءمة بين الاختلافات داخل المدينة. وما إن تمكن من وضع شؤون بلاده على طريق الأمان والسلامة حتى اكتسحته قوة طموح السيبياديس كالموجة العارمة، وأعادت كل شيء إلى هياج وفوضى الحرب[63].

إن انحطاط القيادة الرشيدة، ومن ثم إطالة أمد الحرب، والنزعة التوسعية الأثينية، كانت جميعا خارج تخوم أسلوب الحياة الصحيح كما رسخه النظام العام للأشياء. وهذه الروابط تعطي التاريخ أرضية كونية سامية ـ صحيح أنها غامضة وغير دقيقة بالتأكيد، وتفتقر إلى صرامة أفلاطون الفلسفية، لكن لا يمكن أن نخطئها بالرغم من ذلك. أصبحت تأملات ثوسيديديس حول الحرب الهيلينية تتمتع بمكانة تاريخية محتملة أو محدودة. فعبر تأسيس النقاش حول الحرب على ركائز ميتفيزيقية سامية أعطى مسحة من الزيف لمشاهداته الواقعية حول الحياة المشوهة المثقلة بالهموم والبلايا التي تكشفت أمامه ـ مشقات الحرب التي صورت بأسلوب يثير الشجن في مسرحية اريستوفانيس «الأخارنيون»، خصوصا في الخاتمة، حين يحاول تاجر من ميغاري بيع بناته، بعد أن تخفين بهيئة خنازير صغيرة، من أجل شراء بعض فصوص الثوم، مع أن الثوم كان من الصادرات المشهورة للمدينة قبل اندلاع الحرب. يتعمد ثوسيديديس ترك انطباع مفاده أن العالم الذي رآه أمامه، حيث يدمر الهيلينيون بعضهم بعضا، لم يكن عالما يعيش

بصدق بمعنى أنه ينسجم مع النظام الصحيح للأشياء. ومثلما يمكن القول بالأسلوب الدارج إن الحرب كانت بالنسبة لثوسيديديس أمرا واقعيا جدا لكن خاطئا. أما مقياس الحرب فلا يمكن أن يكون الحرب ذاتها؛ ومن خلال تأطيرها المأساوي الاصطلاحي نعلم أن الأحداث العاصفة التي شكلت الحرب البيلوبونية كانت خارج تخوم الحياة المعيوشة بالأسلوب الصحيح، وأن الحرب تحتم تقديم رواية وصفية لها لأنها حدثت لكن كان يجب ألا تحدث. وما كان صحيحا فيما يتعلق بالحرب البيلوبونية ـ تلك الأفكار والسلوكيات والأحداث المعاصرة التي ناقشها توسيديديس بمثل هذا الغنى والحكمة والبصيرة الثاقبة ـ كان خاطئا أيضا فيما يتصل بالخطوط الرئيسة المأساوية للتاريخ ونصحه للقارئ بأن هذه السلوكيات.. الخ نفسها، تفشل في التوافق مع متطلبات عالم يتكشف كما ينبغي. لذلك، فإن الاستفادة من ثوسيديديس على مستوى مشاهداته الغنية التجريبية، أي أخذه وفقا لقيمته الظاهرية التجريبية فقط، يؤدي إلى تقدير محدود لعمله المرجعي وذلك نتيجة الإخفاق اللزومي في ملاحظة الحالة العرضية أو الطارئة للعالم الذي افترضه أمامه.

علاوة على ذلك، تنصحنا المناقشة الآنفة أيضا بأن نتمتع بالحساسية تجاه غنى الجانب التجريبي أو السوسيولوجي لثوسيديديس[64]. فهو يتحدث عن الطبيعة البشرية بأسلوب أبوقراط، طبيعة تستجيب لمنبه مثير معين بطرائق متوقعة[65]. لكن لا يجري التشديد على أهمية صفات الثبات والديمومة في طبائعنا، فمن الواضح أن فكرة ثوسيديديس عن البشر ترسخ أهمية كبح جماح «طبائعنا» من خلال التفكير التأملي العقلاني. ويبدو أن مفهوم الطبيعة البشرية الثابتة مقيد جدا نظرا لمدى وغنى تفكير ثوسيديديس؛ إذ يجب على مفهوم الطبيعة البشرية أن يخلي مكانه لفكرة الكائن البشري كما جرت مناقشتها آنفا. فأشياء مثل الطاعون والنزاع الأهلي يمكن أن تطلق طبائعنا الطبيعية والكريهة نوعا ما من عقالها وذلك عبر تدمير التقاليد وتقويض ركيزة التفكير الحصيف

والتأمل العميق[66]. ويمكن لهذه التطورات أن تمارس تأثيرا نافذا في طبيعة الحياة الدولية، مما يوحي بأن ثوسيديديس قبل بوجود نوع من الانسياب الخالي من العقبات ضمن المدينة والعلاقات بين المدن ـ الدول[67]. وإذا كان ثمة انسيابية في إنسانيتنا فلا بد من وجود نوع من الإنسانية في طبيعة الحياة الدولية ـ وبالتالي يستحيل التوكيد نيابة عن المؤرخ على أن للعلاقات بين الدول كافة نكهة واقعية. التاريخ يخبرنا بأن الحياة الدولية كانت نزاعة للصراع والحرب في القرن الخامس قبل الميلاد لأن الهيلينيين لم يخضعوا ذواتهم الطبيعية بأسلوب مخلص لكينونتهم البشرية. وأن الأطروحة الأثينية هي تعبير مرضي عن المدن المضطربة. كان من الممكن للأشياء، وتوجب أن تكون، أكثر سعيا نحو السلام؛ ولا بد أن يكون العالم الأفضل تنظيما أكثر سلاما وطمأنينة.

خاتمة

يمكن القول صراحة أن الكتاب الذين اتبعوا التراث الشتراوسي يؤكدون على أن الإمبراطورية نامية طبيعية لـ«منطق» الحياة الدولية كما كيفتها واشترطتها «طبائعنا». ويزعمون أن المؤرخ القديم ثوسيديديس يجسد نسخة رائدة من تفكيرهم حول حتمية الإمبراطورية. ويمكن القول إن القراءة الشتراوسية لتاريخ ثوسيديديس يتعذر تمييزها عن فهمهم للتاريخ. إذ يمكن العثور على أصل وتطور التاريخ برمته في الطبيعة البشرية الجوهرية. وهذه الطبيعة البشرية مكونة من دوافع حتمية لا بد منها ـ الخوف، الطمع، الشرف ـ تشكل طبيعة الحياة الدولية، والتاريخ برمته في الحقيقة. ومع أننا مهتمون بالعدالة في العلاقات بين الأمم، إلا أننا ندرك في نهاية المطاف أن اعتبارات القوة تهيمن على الحياة الدولية. وفي النهاية، تسعى الدول إلى القوة/ السلطة، والقوة/ السلطة ـ الأطروحة الأثينية كما تبدت بشكل سافر في الحوار حول ميلوس ـ تعبر عن حقيقة بسيطة فيما يتعلق بأسباب الحرب والإمبراطورية. ولذلك، وعلى شاكلة ثوسيديديس، يجب ألا نطلق على الحرب والإمبراطورية حكما قاسيا، لأن هذا يعادل تجاهل

طبائعنا الأساسية، وإنكار الحقائق البشرية التي تحدد وتؤثر في طبيعة الحياة الدولية، كما يزعم الفكر الشتراوسي.

لقد قدمنا الحجة هنا على استحالة الاستيلاء على ثوسيديديس باسم المشروع الفكري الشتراوسي، لأن المؤرخ اليوناني أصدر حكما جديا ورصينا يتهم الحرب البيلوبونية ويدين تجاوزاتها ومغالاتها. ومع ذلك، تعمل المزاعم الشتراوسية حول الإمبراطورية على ترقية نظرة شكوكية للحياة الدولية إلى مستوى النظرية، نظرية لا تتأسس بشكل واع على تقدير كبير لطبيعتها الاصطلاحية وأصولها التاريخية، بل على «تلفيق» للعالم اعتمادا على عملية سبر سطحية ظاهراتية للتاريخ وحساسية تجاه متع ومسرات القوة. لماذا نهتم بنظرية تطبّع الإمبراطورية؟ لماذا ننشغل بالقراءة الشتراوسية لثوسيديديس؟ لأن النظرية تعطي إحساسا بالاستمرارية التاريخية، وربما الحتمية، للإمبريالية الأمريكية؛ وتعرض حكما منطقيا للشبهة حين لا يحتمل تعرضه لها؛ والأهم في نهاية المطاف، لأن القراءة تقوم بدورها في مساعدة الطبقة الرأسمالية على الاستمرار في استراتيجياتها المتراكمة المتجددة عالميا، وبالتالي «تغيير طبيعة» الطبقة العاملة في أمريكا الشمالية. لدي شكوك بأن المؤرخ الأثيني حين ألف تاريخه «للعصور كافة»، لم يكن يتصور أن مستشاري البلاط سوف يتملقون زعماءهم وهم يحملون معهم نسخة من التاريخ، لكن أعتقد فعلا أنه كان سيدرك بسرعة أن جهودهم لها علاقة وثيقة بكفاح جماهير العامة.

هوامش

1ـ انظر:

Earl Shorris, "Ignoble Liars," Harper`s Magazine, June 2004, pp. 65-71.

2ـ ثمة رواية أشبه بالمسامرة لكنها مقنعة حول الصلات الشتراوسية مع إدارة بوش من شخص خرج على التقليد المتبع. انظر:

Anne Norton, Leo Strauss and the Politics of American Empire (New Haven, Conn: Yale University Press, 2004).

3ـ وبالتالي، فإن تركيزنا ينصب على العلماء الباحثين لا صناع الأخبار، بمن فيهم ليو شتراوس ذاته وتلامذته الذين يحتشدون في الوسط الأكاديمي الحديث، خصوصا في جامعة شيكاغو وجامعة تورنتو.

4- Kenneth N. Waltz, Theory of International Relations (Reading, Mass.: Addison-Wesley, 1979).

5ـ للاطلاع على مراجعة لهذه التطورات انظر:

Y. H. Ferguson and R. W. Mansbach, The Elusive Quest Continues: Theory and Global Politics (Upper Saddle River, NJ.: Prentice Hall, 2003).

6ـ انظر:

Karl Marx, The German Ideology (Moscow: Progress Publishers, 1976), p. 67.

7- Robert W. Cox, "Social Forces, States and World Order: Beyond International Relations Theory," in NeoRealism and its Critics, ed. R. O. Keohane (New York: Columbia University Press, 1986), p. 248.

obeikandl.com

8ـ للاطلاع على موجز ممتاز لهذه العلاقة انظر:

Shadia B. Drury, Leo Strauss and the American Right (New York: St. Martin`s Press, 1999), especially chs 4 and 5.

9ـ النص الرئيس المستخدم هنا هو:

Leo Strauss, "Thucydides: The Meaning of Political History," in The Rebirth of Classical Political Rationalism: An Introduction to the Thought of Leo Strauss, ed. Thomas L. Pangle (Chicago: University of Chicago Press, 1989), pp. 72-102.

10ـ يتحدث المفكرون الشتراوسيون فعلا عن «الشموليات»، لكنهم يعنون بها ببساطة الملامح الدائمة للطبيعة البشرية أو النزعات الثابتة في التاريخ البشري. أما لغة كليفورد اوروين فتعتبر كاشفة في هذا السياق: «يستهدف ثوسيديديس التعبير عن بارامترات الحياة السياسية، وأنماطها الدائمة وبالتالي المعضلات الدائمة أيضا». انظر:

The Humanity of Thucydides (Princeton, NJ.: Princeton University Press, 1994), p. 4.

11ـ انظر على وجه الخصوص:

Strauss, "Thucydides: Meaning," p. 84.

12- Leo Strauss, The City and the Man (Chicago, Ill.: Rand McNally, 1964), p. 159.

13ـ انظر المناقشة في:

Ibid., especially pp. 154-163, quote from p. 156.

14- Ibid., p. 159.

15ـ انظر المناقشة في:

Ibid., pp. 174-192.

16- Ibid., p. 191.

17ـ انظر:

Hans J. Morgenthau, Politics Among Nations: The Struggle for Power and Peace (New York: Alfred A. Knopf, 1973).

18ـ الفكر الشتراوسي حول ثوسيديديس مفسر عبر استخلاص «صمته الكاشف» وكشف «أعمق طبقة» من فكر المؤرخ القديم (بالاقتباس من كتاب شتراوس «المدينة والإنسان»، ص 152 و231) بطريقة متسقة مع قراءته النخبوية المبهمة للنصوص، والتأويل الشتراوسي الغريب المبين في كتاب شتراوس:

Persecution and the Art of Writing (Westport, Conn.: Greenwood Press, 1952.

19ـ انظر:

Thomas L. Pangle and Peter J. Ahrensdorf, Justice Among Nations: On the Moral Basis of Power and Peace (Lawrence, Kan.: University Press of Kansas, 1999), p. 31.

20ـ انظر:

Norton, Leo Strauss and the Politics of American Empire, p. 200.

21- Strauss, “Thucydides: Meaning,” p. 37.

22- Ibid.

23- F. M. Cornford, Thucydides Mythistoricus (London: Edward Ar-

obeikandl.com

nold, 1907) and C. N. Cochrane, Thucydides and the Science of History (London: Oxford University Press, 1929).

24ـ من المعتقد أن هناك مجموعة تضم أكثر من سبعين عملا عرفت باسم المؤلفات الأبوقراطية كتبها عدد من الأطباء الذين قدموا مشاهدات فيزيولوجية دقيقة فيما يتعلق بالعلل والأمراض. ديمقرايطوس (460 ـ 370 ق.م) كان من أعظم المفكرين العارفين حيث كتب حول تشكيلة متنوعة من الموضوعات، بدءا بالموسيقى وانتهاء بالتاريخ، لكن لم يبق من أعماله سوى شذرات متفرقة.

25ـ في كتابه «المدينة والإنسان»، شن شتراوس هجوما شديدا ومسهبا على هذه الصلة (ص 192 ـ209).

26- Ibid., p. 161.

27ـ انظر:

Strauss, "Thucydides: Meaning," p. 96.

من اللافت، بالمناسبة، أن أكثر القراءات سطحية في العلاقات الدولية قد توصلت إلى النتيجة ذاتها حول ثوسيديديس عبر التركيز على بضع فقرات مفتاحية وتجاهل جملة النص. انظر على سبيل المثال:

Michael W. Doyle, "Thucydides` Realism," Review of International Studies, 16 (1990), p. 223.

28- Strauss, "Thucydides: Meaning," p. 99.

29ـ انظر على سبيل المثال:

W. P. Wallace, "Thucydides," Phoenix, 18(4), Winter 1964, pp. 256-257.

obeikandl.com

30ـ انظر مناقشة ايريك فويغلين «للفطرة الراديكالية» في:

The New Science of Politics: An Introduction (Chicago, Ill.: University of Chicago Press, 1952), especially ch6.

31ـ حتى بعد نشر عمل كوشران، ظهر نقد مفاده أن الطريقة العلمية لا تحول دون الاعتبارات الميتافيزيقية والأسئلة الأفلاطونية فيما يتعلق بـ«الحياة الصالحة»، لكن النقطة المهمة في ورقة البحث هذه هي أن مثل تلك الاعتبارات أمر حتمي لا مفر منه. انظر:

A. W. Gomme, "Thucydides and Science," Classical Review, 44(4), September 1930, p. 124.

حتى أفضل التحليلات التي تناولت ثوسيديديس ارتكبت للأسف الخطأ ذاته وانحدرت إلى مستوى القراءة الفطرية المجردة للتاريخ. انظر:

G. E. M. de Ste. Croix, The Origins of the Peloponnesian War (Ithaca, NY: Cornell University Press, 1972).

32- A. N. Whitehead, Adventures in Ideas (New York: Macmillan, 1961), p. 4.

33ـ بالنسبة لحساسية ليو شتراوس تجاه الأفكار المتعلقة بـ «الصلاح» وطبيعة «التاريخانية»، انظر:

"What Is Political Philosophy?," in What is Political Philosophy? And Other Studies (Westport, Conn.: Greenwood Press, 1959), pp. 9-55.

علاوة على ذلك، تشير هذه التوريات إلى واحد من أشد التناقضات جوهرية في الفكر الشتراوسي كله الذي يظهر على السطح عند تفحصنا لاستيلائه على ثوسيديديس باسم الإمبراطورية، ألا وهو شغفه بالقدماء

الميتافيزيقيين ونيتشه المعادي بشدة للميتافيزيقيا، وتلك عواطف مشتركة لا يمكن الحفاظ عليها بالمشاعر الفلسفية. للاطلاع على وصف مترع بالرؤى الثاقبة للشغف الشتراوسي بنيتش ـ وصف يتمحور حول السياسة المحافظة لأعمال الشتراوسيين ـ انظر:

Shadia B. Drury, The Political Ideas of Leo Strauss (New York: St. Martin`s Press, 1988), ch. 9.

34ـ انظر:

Homer, The Iliad, trans. Robert Fagles (Harmondsworth: Penguin Books, 1990), 14.105-107.

35- Euripides, The Trojan Woman, trans. Gilbert Murray (New York: Oxford University Press, 1915), p. 16.

تتحدث هذه المسرحية بالذات وبشكل مباشر عن المشاعر الشعبية في أثينا، خصوصا مخاوف الجماهير من الهجوم الذي شن مؤخرا على جزيرة ميلوس والمجادلات المستمرة حول الحملة الصقلية. وفي الحقيقة، فإن موضوع المسرحية وثيق الصلة وراهن إلى حد غياب الأحداث تقريبا. وكما يكتب فيليب فيلاكوت: «العرض راهن إلى حد أنه يجذب الانتباه بالتأكيد بدون مساعدة الحبكة؛ ومن الواضح أن المؤلف شعر بأنه حر في تطوير موضوع انعكاسي لا تثقله الإثارة أو المفاجأة». انظر:

"Introduction," The Bacchae and other Plays (Harmondsworth: Penguin Books, 1954).

36- Aristophanes, The Acharnians, trans. Alan H. Sommerstein (Harmondsworth: Penguin, 1986), pp. 57-58.

obeikandl.com

37ـ انظر:

Thucydides, The Peloponnesian War, trans. Rex Warner (Harmondsworth: Penguin Books, 1954), VI. 1.

38- Ibid., VI. 31.

39ـ يتفجع هيرودوتس على الحرب قائلا: «لا يوجد إنسان يبلغ به الحمق حد تفضيل الحرب على السلام؛ ففي أحدهما يدفن الأبناء آباءهم، وفي الآخر يدفن الآباء أبناءهم». انظر:

The Histories, trans. David Greene (Chicago, Ill.: University of Chicago Press, 1987), 1. 87.

40ـ انظر:

Leo Strauss, "Preliminary Observations on the Gods in Thucydides? Work," in Studies in Platonic Philosophy, ed. Thomas L. Pangle (Chicago, Ill.: University of Chicago Press, 1983), p. 96.

41ـ مع أن اعتبار روايات ثوسيديديس كلها بمثابة «تراجيديات» يدين بالفضل إلى عمل كورنفورد، إلا أن موضوعاته كثيرا ما قدمت بشكل مغلوط ومنقوص. للاطلاع على عرض مختلف للعديد من الموضوعات المحورية ـ العقل والعاطفة، المنطق والعمل، انظر:

David Bedford and Thom Workman, "The Tragic Reading of the Thucydidean Tragedy," Review of International Studies, 27, 2001, pp. 51-67.

أما ورقة البحث هذه فتتمحور على فكرة ثوسيديديس حول البشر لاستخلاص العظمة الكونية من التاريخ، وتؤكد أن عمل كورنفورد فشل في القيام بذلك بشكل كاف.

obeikandl.com

42ـ في الحقيقة، كما يخبرنا وينسبير، لا يقلل هذا الرأي حول القائد الصالح الكفء الذي يعكس ميول الطبقة الأرستقراطية، من أهمية ملاحظاتنا حول مقاصد ثوسيديديس. بل إن جذور تفكيره منفصلة تماما عن تعبيراته الأدبية التي أراد إيصالها. انظر:

A. D. Winspear, The Genesis of Plato`s Thought (New York: S. A. Russell, 1940), pp. 216-217.

للاطلاع على وصف أشمل للأصول الطبقية للفلسفة اليونانية القديمة، انظر:

E. Wood and N. Wood, Class Ideology and Ancient Political Theory: Socrates, Plato, and Aristotle in Social Context (New York: Oxford University Press, 1978).

43ـ للاطلاع على معاينة شاملة وممتازة للديماغوجية في السياق السياسي الأثيني، انظر:

M. I. Finley, "Athenian Demagogues," Past and Present, 21 April 1962, pp. 3-24.

44- Thucydides, The Peloponnesian War, III. 36.

45- Ibid., III, 38.

46- Ibid., III, 40.

47- Ibid., III, 42.

48ـ للاطلاع على قراءة مشابهة للجدل حول ميتيلين، انظر:

A. Andrews, "The Mytilene Debate: Thucydides 3.36-49," Phoenix, 16(2), Summer 1962, pp. 64-85.

obeikandi.com

49ـ أعتقد أن هذا ما عناه اوروين بالإنسانية، بالرغم من ملاحظة افتقاره إلى الوضوح في هذا الجانب. انظر:

Simon Hornblower, "Humane Thucydides," Classical Review, 47(1), 1997, pp. 31-32.

50- Thucydides, The Peloponnesian War, III. 82.

بالنسبة للطاعون الذي أصاب أثينا، انظر:

II. 55-65.

51ـ جرت معاينة هذه الموضوعات من قبل كورنفورد، رغم عدم إجرائه مناقشة واضحة للفكرة البازغة حول البشر. انظر:

Thucydides Mythistoricus.

52- Thucydides, The Peloponnesian War, V. 105.

53- Ibid., V. 103.

54- Ibid., V. 105.

55- Ibid., V. 107.

56ـ للاطلاع على الصلات المباشرة بين معالجة ثوسيديديس للجدل حول ميلوس ويوريبيديس التراجيدي، انظر:

Grace Harriet Macurdy, "The Fifth Book of Thucydides and Three Plays of Euripides," Classical Review, 24(7), November 1910, pp. 205-207.

57- Thucydides, The Peloponnesian War, VI. 13.

58ـ يكرس ثوسيديديس قسما كاملا لسياسة بيركليس، وخلافا لأفلاطون وأرسطو، اللذين يرجعان الديماغوجية إلى وقت أبكر، فإن النقطة المفصلية بالنسبة للمؤرخ هي عالم ما بعد بيركليس. انظر:

openkandil.com

The Peloponnesian War, VI. 13.

أما أفلاطون فيرجع بدء الانحطاط إلى وقت مبكر ويمتد إلى ميلتياديس، وثيمستوكليس، وسايمون، وبيركليس. انظر:

Plato, Gorgias, trans. W. C. Helmbold (Indianapolis, Ind.: Bobbs-Merill, 1952), pp. 75-82, 502-507.

كما قدمت الحجة أيضا على أن مديح ثوسيديديس لبيركليس كان مقيدا. انظر:

E. Melian Stawell, "Pericles and Cleon in Thucydides," Classical Quarterly, 2(1), January 1908, pp. 41-46.

59- Thucydides, The Peloponnesian War, II. 65.

60- Ibid., VI. 9.

61- Ibid., II. 65.

62- Ibid., VI. 18.

63ـ انظر:

Plutarch, The Rise and Fall of Athens: Nine Greek Lives (Harmondsworth: Penguin Books, 1960), p. 217.

64ـ جرى الاقرار بالتأثير السوسيولوجي للقدماء على مر الأجيال، لكن لم يقدر ثوسيديديس حق قدره عموما. فقد كان التشديد مركزا على التأثير النافذ لأرسطو في كتاب مثل ماركس وفيبر، لاسيما نظرية ماركس حول الاقتصاد السياسي. انظر على سبيل المثال:

George E McCarthy, Classical Horizons: The Origins of Sociology in Ancient Greece (Albany, NY: State University of New York Press, 2003).

obeikandl.com

حيث لا يذكر ثوسيديديس إلا فيما ندر. لكن ثوسيديديس، لاسيما في الكتاب الأول، هو الذي يبتكر ـ إلى حد ما ـ التحليل السوسيولوجي، أي أنه ينظم مناقشته حول أفكار تعتبر ماركسية (التحليل الأساسي للطبقات والفئات الطبقية) ومالثوسية (لافتراضات الأساسية حول حدود النمو السكاني التي تؤثر في سلوك الهجرة والتنقل)، وتجتمع هاتان الديناميتان للتأثير في العلاقات بين المدن. لكن في الحقيقة، لا يمكن جمع فكر ثوسيديديس بالطريقة التي تسمح فيها فلسفة أفلاطون وأرسطو بصقل التصنيفات والمفاهيم السوسيولوجية التي تحظى بأهمية محورية لفهم شرور وقيود الحداثة.

65ـ انظر على سبيل المثال:

D. L. Page, "Thucydides` Description of the Great Plague at Athens," Classical Quarterly, 47(N.S.3), 1953, pp. 97-119.

66ـ يكرر ثوسيديديس ذلك مرارا. انظر على وجه الخصوص:

Thucydides, The Peloponnesian War, II. 53.

67ـ مع أن ذلك يقع خارج نطاق هذه المقالة، إلا أن ثوسيديديس يعرض في مختلف فصول الكتاب الأول من «الحرب البيلوبونية» على وجه الخصوص، روايته عن العالم الذي أغرق اليونان في حرب كاسحة ومدمرة، ويزعم أن طبيعة الحياة الدولية سيالة، فالحروب تأتي وتذهب نتيجة تصميم العلاقات الطبقية وطبيعة دساتير الحكم في أي منطقة. وفي لغة مألوفة مرة أخرى، لا يعمل ثوسيديديس على تشيئة الحياة الدولية، لكنه يعتمد على الحياة التي لا تعترضها الصعوبات داخل المدن المتطورة من ناحية، والعلاقات بين المدن من ناحية أخرى. وحين نعرف في نهاية المطاف أن المدى المتنامي للإمبراطورية الأثينية سبب الذعر لدى الإسبارطيين، تعلمنا المقدمة بأن النخب في الإمبراطورية البيلوبونية كانت في مأزق، وشعرت بضرورة اتخاذ فعل إجرائي.

obeikandl.com